

النُوريات في النثر الاندلسي

كميل الناشف (*)

من الثابت المعهود أن النثر في الأندلس قد جاز أطواراً من النماء والازدهار حتى بلغ مرتبة النضج والاكتمال. ففي عهد الولاة نهض به جماعة من المشاركة الطارئين، فترجع بين خطابة تحض القوم، غبّ الفتح، على مواصلة الجهاد؛ ورسائل ديوانية تحمل إلى العمال في الأقاليم أوامر الحكام وتوجيهاتهم، وإلى الثائرين والمتالبين فنوناً من الترغيب والترهيب.

وفي عهد الخلافة الأموية عراه خصب وثناء، وماجت عروقه بأسباب الزخم والنشاط بعد أن ضربت جذوره في الأرض الأندلسية تمتص منها أنواع الغذاء، وبعد أن قدحت به قرائع المولدين في ذيك الأفق. وإذ بالرسائل الأدبية تنسلخ عن أترابها الديوانية، وتتفرد فناً قائماً بذاته أيام الدولة العامرية على وجه الخصوص⁽¹⁾.

وإلى هذا الضرب من النثر سيره، في عهد ملوك الطوائف، على مدارج التطور والترقي، يعضده في ذلك انتشار الكتاب في البلاطات المتنثرة في أصقاع الأندلس، يصطفهم الملوك من المجيدين للمباهاة والتفاخر، حتى اشتهرت كل حاضرة بطائفة من المبرزين الذين شعبوا أغراض النثر الفني وشققوا مضامينه⁽²⁾؛ فإذا هو مجلى لكتومات الصدور ومواجيد الانفس وبنات الخواطر. وإذا هو معرض لما يصفح أبصارهم من لطائف الطبيعة وزخارف العمران، وما يعتورهم في أحوال القلب والمعاش والاجتماع. ومن نواجم ذلك أن شارك الشعر في بعض الموضوعات وباراه في بعضها الآخر. وقد صاحب ازدهار فن الرسائل الأدبية نشوء فن المقامات⁽²⁾.

وفي أثناء العهد المغربي حفّ به الركود بعد أن غشاه الكتاب من الفقهاء ببرودة

(*) استاذ في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب.

(1) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، 1960، ص 272.

(2) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1960، ص 325.

العلم، وأثقلوه بشتى أنواع الزخارف. وقد نشأ النثر الفلسفي في أيام الموحدين فغلب الطابع العقلي على النثر في معظم الأحيان⁽³⁾.

وما عثم النثر الفني أن استرد قسطاً من روائه ورونقه أيام بني الأحمر، في مملكة غرناطة، مع لسان الدين ابن الخطيب وسواه من الكتّاب المعروفين. ولكنه ظلّ، في الغالب الأعم، متسربلاً بالجمود، تستبد به أصناف من المعاني الدارسة، والصور المكرورة، والعبارات المُعادة⁽⁴⁾.

وقد حظيت النوريات في ذلك النثر بنصيب موفور، إذ طفق الكتّاب يصفون نواوير الرياض ويفاضلون بينها، يغريهم بذلك ما أزيّنت به منابتهم من زهر أنيق المنظر والمخبر، ينبسط أمام نواظرهم في الوهاد والروابي، فيأسرهم منه سحر اللون وجمال الهيئة وفتون الريح.

ويغلب على الرأي أن هذا الضرب من النثر النوري قد نجم في أفق الدولة العامرية صاحباً طوالع الرسائل الأدبية؛ ثم ما انفك يزداد ضياءً حتى أدرك غاية التالق والإشعاع أيام ملوك الطوائف مواكباً النهضة الكبرى التي شهدتها النثر الفني.

وسنعرض في هذا المبحث للأشكال التي أفرغت فيها النوريات في ذلك النثر، ثم نخرج على الموضوعات والمعاني المبتوثة في أضعافها، لننصرف في نهاية المطاف إلى إبراز خصائصها الفنية.

أشكالها

خصّ الأندلسيون النوريات في نثرهم بتكوينين اثنين: يمثل الأول في الرسائل الأدبية، أما التكوين الثاني فيتجسد في قطع نثرية مختلفة قوامها وصف الطبيعة.

1 - النُوريات والرسائل

يلوح أن أظهر الأشكال التي اتخذتها النوريات في النثر الأندلسي كان معقوداً بالرسائل الأدبية المحلاة بشتى ألوان البيان وأصباغ البديع. وقد تصنّفت هذه الرسائل صنفين: إما رسائل قصيرة يتداعى فيها خلان الصفاء إلى التنزه في مباسط الطبيعة زمن الربيع، أو يودعونها وصف نور بعينه يرفق بها على سبيل الإهداء. وصنف قوامه الرسائل الطويلة المخصوصة بالمفاضلة بين نورين أو أكثر، يرسلها أصحابها إلى الملوك والأعيان. وفي كلا الصنفين وصف لأنوار الرياض وإطراء لنعتها يشي بهيام القوم بها واستظرافهم حسننها، كما ينم على وفرتها في رباع الأندلس.

(3) المصدر عينه، ص 331.

(4) شوقي خليف: الفن ومناهبه في النثر العربي، ص 332.

١ - النُوريات والرسائل القصيرة

شغف الأندلسيون بطبيعة بلادهم يطرزها الربيع بزخارف النور فتغدو نزهةً للأعين ومغنىً للترويح وجلاء الكرب. فاندفعوا إلى الرياض يستمتعون بلطائف الرياحين، ويعقدون على مفارشها مجالس الأنس والغناء. وقد استوى في هذا المنزع الخاصة والعامة من أهل الأندلس^(٥). وقد زَيْنَ هذا المناخ لطائفة من الكتّاب أن ينشئوا رسائل قصيرة يعمدون فيها إلى وصف النواوير وسواها من زائنات الطبيعة لأجل استدراج الرفاق إلى نزهة أو إلى حلقة أنس.

وقد عَجَّت التصانيف الأدبية الأندلسية بهذا اللون من الرسائل. فـ البديع في وصف الربيع لأبي الوليد الحميري، وقلائد العقيان لابن خاقان، والذخيرة لابن بسام، والنفح للمقري، قد ازدانت كلها بأصباغ تلك الرسائل التي امتزج فيها وصف الزهر بوصف سائر مباحج الطبيعة في معظم الأحيان. ويلوح أن ذاك الوصف النُوري يترجّح بين الاقتضاب والإطناب. فتارةً نجد بعض الكتّاب، في معرض حديثهم عن مفاتن الربيع، يلمّون بالأنوار إلماً عارضاً غير ذي بال. نمثّل على ذلك برسالة بعث بها ذو الوزارتين القاضي ابن عباد إلى أبي عامر بن أبي عامر يصف فيها حسن الربيع، إذ يقول: «فقد أشرقت الأرض وزهي الروض، وأقبل فصل الربيع بكل حسن بديع، وأفصح الطير بعد عجمتها، وأبدت النواوير زهرتها، وكست الورق شجرها وغطت الزروع مدرها، فلست ترى إلاّ خضرة تسطع، وثماراً تينع، تجلو الصدى من الكبد الحرّ، وتزيح الأسى عن النفوس المرضى...»^(٦).

وبين أن ابن عباد، في هذه الرسالة، قد خلبه الربيع الذي أسبغ على الطبيعة الحسن الأسر فحرّك سكونها، وكسا عريها وأحدث فيها انبعاثاً؛ فخفّ يصف أهازيج الأطيّار وخضرة الأشجار وتفتّق الأنوار، وما يورث ذلك من دفع للهيم وجلاء للحزن والكمد. وبادٍ أيضاً أن كلامه على النواوير لم يجز الذكر العابر والتعميم الغائم. فإذا هي بمنزلة عنصر متمم من عناصر تلك اللوحة الربيعية.

وبإزاء هذا التعرّيج الخاطف على الزهر نقع في رسائل أخرى على شيء من التوسع في وصفه وتبيان بعض أحواله، من مثل واحدة للوزير أبي حفص بن برد بعث بها إلى نظيره أبي إسحق بن حمام غبّ نزهة قاما بها إلى خمائل قرطبة في زمن الربيع؛ يقول فيها بعد صدر: «كيف شاهدت أنهارها وقد درّت عليها أخلاف الأنواء فاتأقنتها^(٧)، وأنوارها وقد سرت إليها خيالات الأنداء فأرققتها، وكيف تأملت الربيع وقد صاغ

(٥) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج ١، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٨، ص ٥٣٠.

(٦) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، تحقيق هنري بيرس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤٠، ص ٩.

(٧) فاتأقنتها: فملأتها.

لمفارقها تيجاناً، وفتق لمعاصمها أرداناً، فكانما راسلت الأرض زهر النجوم، مع كدر الغيوم أن تبديها عند جلائها، في هيئة سمائها، وكيف عاينت انشقاق تلك الاباطح، عن نهرها السابح، كأنه فضة تحتها نار، فليس لها أبداً قرار، يلبس للريح لأمه، ويسل على الشمس صمصامه⁽⁸⁾.

ولا يخفى أن ابن برد فات ابن عباد في وصفه الأنوار التي أيقظها انسكاب الطلّ فاستحالت معه كمثّل التيجان المرصعة بالجواهر والأكام المفتقة عن الدنانير، فإذا هي تباري الكواكب إشراقاً واثلاقاً. ومع ذلك، فإن ابن برد لم يسَلط الضوء على أنواعها، وإنما قنع بالحديث عن هيئتها وألوانها من باب الإجمال والتعميم.

وثمة رسائل أخرى اجتهد أصحابها في وصف الأزهار بقدر من الإفاضة والتفصيل، فبرزت صورها واضحة القسّمات ساطعة الأصباغ. من هذا الصنف رسالة للوزير ابن حمام يردّ فيها على قرينه ابن برد واصفاً فيها الروضة عينها، فيقول بعد صدر: «قد نسجت لها من زهر الربيع حللاً، وسقتها من مجاتها عذباً غللاً⁽⁹⁾»، وأطلعت فيها آثار الغيوم، أشباه النجوم، فازدانت بأبهج لبوس، وبرزت للناظرين في حليّ العروس، كأنما اختلست لفظك فلبسته، أو أمكنها كلامك فتوشحته، فمن قانيء صبح الهواء غلائله، وغدت السماء خمائله، لا يشتكي من نداها بشرق، ولا يبيت من ظمأ على فَرْق، حتى بدا في لون شفيق، فكانما شرب رحيقاً، أو لبس عقيقاً، أو كأنما خاف عذلاً فاحمرّ خجلاً، يحمل من طلّه فرائد كأنها أدمع بخرائد، أو فاقع يجنك تبرأ، ويريك من لونه سحرأ، يلقاك من حسنه في أجمل منظر، ويختال من جلابيبه في معصفر، كأنما خافت هجرأ، واستشعرت ذعرأ، ترنو إليك بمقل حسان لا تنطبق منها الأجفان، فكانما تشكو سهرأ، أضعف منها نظراً، إلى تحاسين قد ليست ثوب بهائها، وضحكت عن بكاء سمائها، تروك من حسننها فنون، وترنو نحوك منها عيون، فمن بصير وأكّمه⁽¹⁰⁾ وكحيل وأمرّه⁽¹¹⁾»⁽¹²⁾.

مما يجتذب الانتباه في هذه الرسالة اقتصارها على وصف الزهر في تلك الروضة. وهو وصف قوامه التوسع في جلو ألوان الزهر المتنوعة، وإبراز أشكاله في حالّي: التفتح والإطباق. ولئن كان ابن برد في رسالته قد اكتفى بالكلام على إشراق الزهر المطلول وسطوعه فإن ابن حمام ههنا يبسط الحديث عن ألوان بأعيانها من نحو الحمرة المشبهة للشفق والعقيق، والصفرة المماثلة للذهب، هذه مبعثها البعاد والجزع، وتلك مبعثها الخفر والحياة؛ ومن نحو البياض المضارع لأدمع الحسان. ثم إنه يتناول

(8) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 22.

(9) القلّ: الماء الجاري بين الأشجار.

(10) أكّمه: المولود أعمى.

(11) أمرّه: الذي لا يكتحل.

(12) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 23.

أشكال الزهر فيخال بعضه عيوناً دائمة التحديق وبعضه الآخر عيوناً مطبقة؛ هذه جفاها الكحل، وتلك تزينت بسحره.

ومن تلك الرسائل ما عمد خلاله منشئوها إلى الإيغال في التخصيص فوصفوا أنواراً بأعيانها، وأفردوا لكل واحد منها الخصائص التي تميزه والأحوال الماثورة عنه. نمثل على ذلك برسالة بعث بها عمر بن هشام بن قليب إلى صديق له يستدعيه في زمن الربيع، ويصف فيها جملة من النواوير، إذ يقول: «نحن - أكرمك الله - على بسط الرياحين ودرانك الورد والياسمين، ووشي رياض مونقة حاكتها أيدي الربيع المغدقة، تلاحظنا عن أعين النرجس والسوسان بأحلى محاجر وأجفان، وتبسم عن نور الأقحوان بمثل الدر والمرجان، فهي متضوعة عن لطائم المسك متنفسة بأرج الورد، جذلة بهجة، فائحة أرجة، فإن تقارن حسنهما بحسن وجهك فهي حالية مشرقة، وإن عطّلت من ضياء غرتك فهي باكية مطرقة»⁽¹³⁾.

وجلي أن النواوير في هذه الرسالة محددة الأنواع بيّنة الأسماء، وقد خصّ ابن قليب كل نوع بما يناسبه من الأشكال والألوان والأحوال. فبدا النرجس والسوسن أعيناً ترنو إلى المتنزهين، والأقحوان ثغوراً تفتّر عن مثل نفائس الجواهر. وهي جميعاً تتأود، ومن تأودها البهيج يفوح ريح يعدل غاليات الطيب.

ولعل أكثر الرسائل، في هذا الباب، إفاضة في وصف الأنوار ورسم هيئاتها وتجسيد أحوالها، واحدة لأبي جعفر بن الأبار بعث بها إلى صاحب الشرطة أبي الوليد بن العثماني، يصف له فيها روضة ضمت من أجناس الزهر ما يفتن العين ويسكب في النفس الارتياح، فيقول بعد صدر: «والرياض راضية من الحيا متبرجة بعد الحياء، أهدت لها المزن يزرّها، فأبدت يواقيتها ودررها، وخشيت بالكتم عقوقها، فاستنفدت زمردها وعقيقها، إن حيتك بالشقائق فكاللّذات الشقائق مغلّفات العصائب، منشّرات الذوائب؛ أو بالنرجس والورد فكالعيون النواظر، إلى الخدود النواضر، بل ذاك صبح مشتمل على شمس أصيل، وهذا خجل مستول على خد أسيل؛ أو سفرت عن البنفسج الأنيق، فكلابس ثوب المسك الفتيق، وكأنما كسته لعسها الشفاه، فإذا تنسمه أو توسمه المحزون شفاه، قد شَرِقت بالطلّ مقلها، وضُمّنت بالمسك حللها، فما زلنا في أحسن مراد، وأقرب غاية مراد، من التماح يانع الزهر، حتى احتللنا قرية بشاطيء النهر، ولسان الهجير قاتلة، لا تخطئك بها القاتلة...»⁽¹⁴⁾.

مما لا ريب فيه أن هذه الرسالة تفوق نظيراتها السابقة تبسّطاً في وصف أجناس من الزهر، وتقصّياً في تصوير خصائص كل جنس، وتفصيلاً في إبراز هوية كلّ نور بعينه. فابن الأبار جدّ في تحديد صفات الأزهار التي تصدى لها ههنا؛ إذ نقل الأشكال

(13) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 31.

(14) المصدر عينه، ص 68.

والألوان بله الأشداء؛ فالنرجس يشبه العيون شكله، ويضارع ببياضه وصفته الصبح والأصيل، أما الورد فيعدل الوجنات التي حمّرها الخفر شكلاً ولوناً. وريح هذا وذاك فيوازن فتيت المسك طيباً. وعلى هذا المنهاج يجري ابن الأبار في وصف الشقيق والبنفسج.

أما الضرب الثاني من الرسائل القصيرة، المعقود بوصف نور واحد يُقرن بالرسالة لأجل الإهداء، فهو شائع في النثر الأندلسي. ذلك أن بعض الأندلسيين درجوا على إهداء النواوير التي تطلع في غير أوانها على وجه الخصوص. وكانوا يضمّون إليها رسائل قصاراً تتضمن وصف بعض خصائصها. نمثّل على ذلك بواحدة أرسلها أبو الوليد الحميري إلى صاحب الشرطة أبي الوليد بن العثماني، ومعها جني ورد مبكر، جاء فيها مثل قوله: «بعثت بخدود المعشوقين قد أدمتها الحاظ العاشقين، أدمنت عليها ناظرة، فتساقطت هكذا ناضرة، فاحكم على العيون للخدود على أن لا تعود للصدود، والسلام»⁽¹⁵⁾.

غني عن البيان أن هذه الرسالة اقتصرت على وصف الورد وحده؛ إذ جعل صاحبها يقارب بين لون هذا النور وخدود الحبيبات التي اصطبغت بلون الخجل بعد أن اقتحمها أعين المحبين.

وفي بعض الأحيان تكون الرسالة رداً على أخرى، فتضم ثناءً على المرسل الأول ووصفاً للنور المرسل؛ من هذا الطراز واحدة بعث بها الوزير أبو جعفر بن أحمد إلى صديق له أهدى إليه مشموم ورد، يقول فيها: «زارنا الورد بأنفاسك، وسقانا مدامة الأنس من كاسك، وأعاد لنا معاهد الأنس جديدة، وزفّ إلينا من نبات البر خريدة، فاحمّر حتى خلته شفقاً، وأبيض حتى أبصرته من النور فلحاً، وأزج حتى كان المسك من ذكائه، وتضاعف حتى قلت الورد من حياته، فليتصور شكري في مرآه، وليتخيّل ذكرى في بهجته ورياءه، إن شاء الله»⁽¹⁶⁾.

إن الكاتب في هذه الرسالة ينبري إلى امتداح شمائل مهدي الورد من خلال محاسن هذا النور، فيزاوج بين نفح هذا وإشراقه، وأنفاس ذاك وأنسه؛ ثم يلوي على وصف الورد وحده فيمثل حمرة بعضه بلون الشفق، وبياض بعضه الآخر بلون الضياء، دون أن تفوته الموازنة بين أرجه وريح المسك. ومثل هذا النمط كثير في الرسائل النورية القصار التي أكتب الأندلسيون على إنشائها.

(15) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 129.

(16) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، ق 3، م 2، دار الثقافة، بيروت، 1979، ص 756.

ب - النُوريات والرسائل الطويلة

لم تكن النوريات في النثر الأندلسي حبيسة الرسائل القصيرة، بل تجاوزتها إلى الرسائل الطويلة يبعث بها الوزراء، في الغالب الأكثرى، إلى الملوك والأعيان. وقد انشعبت هذه الرسائل شعبتين: منها ما اشتمل على مفاخرة فردية يقوم بها أحد الأنوار فيعتد بمحاسنه ويمتدح خصال ذاته، ويعدّد مثالب غيره ويحطّ من قدره ابتغاء الفوز بالخطوة لدى السلطان. وشعبة تضمنت مفاخرات جماعية تقوم بها أجناس من النواوير، كلّ يجد في المباهاة بمفاته ومنافعه من أجل برّ سواء والتقدم عليه في الفضل والأولية.

من النوع الأول رسالة كتبها الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري إلى المنصور بن أبي عامر على لسان بنفسج العامرية الذي يستهل كلامه بالثناء على الحاجب والدعاء له، ثم يمضي إلى الاعتداد بنفسه داحضاً مزاعم النرجس والبحار. فإذا هو يفضلهما منزلةً وأرجاً ولوناً وشكلاً. فصورته تستعذبها النواظر في حالّي النضرة والجفاف، ومنافعه معمومة على الأعضاء، يدّخره الملوك وتلهج بحسنه السنة الشعراء والحكماء؛ ثم يترك للمنصور في نهاية الدفاع عن نفسه أن ينصف في الاختيار، ويعدل في الحكم؛ ومما جاء فيها: «إني أعطر منهما عطرأ، وأحمد خبرأ، وأكرم إمتاعأ شاهدأ وغائبأ، ويانعا وذابلأ، وكلاهما لا يمتعك إلا ريث ما يبدو للعيون ويسلم من الذبول، ثم تستكره الأنوف شمّه، وتستدفع الأكفّ ضمّه، فأين هذه الحال من الاستمتاع بي رطبأ، وادخاري في خزائن الملوك جافأ، وتفضيلي على السنة الحكماء، وتصريفي في منافع الأعضاء...»⁽¹⁷⁾.

ومن جملة رسائل المفاخرة الفردية واحدة للوزير أبي عمر الباجي كتبها على لسان البهار إلى المقتدر بن هود. وفيها يشرع هذا النور في نشر محامده وعرض فضائله التي لا تشاركه فيها النواوير من حيث التبكير في الطلوع، والتشبه بكرائم الجواهر، فضلاً عن العيون، ومن حيث إغراء الرفاق بعقد مجال الأنس على درانكه. وهو يذكر الأمير بخضوعه له وانقياده لرغائبه، راجياً منه تمييزه على أقرانه، وإزالة حسد الحساد عنه؛ نقتطف منها ما نصه: «أطال الله بقاء المقتدر بالله، مولاي وسيدي، ومعلي حالي ومقيم أودي، وأعاذني من خيبة العناء، وعصمني من إخفاق الرجاء، ولا أشمت بي عدواً من الرياض يناصبني وحاسداً من النواوير يراقبني... وقد أتيت في أواني، وحضرت وغاب أقراني، ولم أخل من خدمتك رتبتي ومكاني... وأنا عبد مطيع مسخر ومملوك يتصرف مدبر، حقيق بأن يحسن إلي فأدنى... لأنني سابق حلبة النوار، وأول طلائع الأزهار، وأنا ناظر الفضل وعينه، ونضار الروضي ولجينه، وقائد الظرف وفارسه، وعاهد مجلس الأنس وحارسه...»⁽¹⁸⁾.

(17) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 78.

(18) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 2، م 1، ص 195.

ولئن كان الكتاب في مثل هذه الرسائل يتخيرون نوراً بعينه، يجعلونه ينطق بفضله ويفاخر بنفسه أمام أصحاب الشأن، فإنهم في صنف آخر من الرسائل اصطفوا عدة أنوار وأعاروها صفة التحاور والتفاضل. من هذا الصنف رسالة للوزير أبي حفص أحمد بن برد بعث بها إلى الوزير أبي الوليد بن جهور. وقوامها أن خمسة أنواع من النواوير هي: الورد والنرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النّمام، ضمّها مجلس في بقعة فانت سائر البقاع جمال منظر وطيب نفع⁽¹⁹⁾. وما هي إلا أن طفق الناطق باسمها يبرز جمال كل صنف منها ليثبت بعدئذٍ أوليّة الورد وتقدّمه عليها جميعاً⁽²⁰⁾. حتى إذا فرغ من كلامه راح كل نور يثني على الورد معدداً فضائله ومبدئاً خضوعه له وشغفه به. فقام النرجس الأصفر يبوح بما يكّنه له من حب وهيام أو هن منه الجسم فعراه الشحوب والاصفرار، في مثل قوله: «والذي مهّد لي جحر الثرى وأرضعني ثدي الحيا، لقد جئت بها أوضح من لبّة الصباح، وأسطع من لسان المصباح، ولقد كنت أُسرُّ من التعبد له والشفغف به والأسف على تعاقب الموت والرجعة دون لقائه ما انحل جسمي ومكّن سقمي، وإذا قد أمكن البوح بالشكوى فقد خفّ ثقل البلوى»⁽²¹⁾.

وتبعه البنفسج فاعترف للورد بوجوده الذي أورثه ندوباً في وجهه واسترخاءً في جسمه، وهو لا يستشعر الأنس والسلوان إلا بجواره ومرآه؛ إذ يقول: «على الخبير سقطت، أنا والله المتعبد له، الداعي إليه، المشغوف به كلفاً، المغضوض بيد الناي عنه أسفاً، وكفى ما بوجهي من ندب، وبجسمي من عدم نهوض، ولكن في التأسّي بك وفي الاستواء معك وجدان سلو»⁽²²⁾.

ثم نهض البهار فأقرّ بعشقه الورد الذي أحاله حدقة شاخصة باهتة اللون لا تني تغرورق بالدمع، في مثل قوله: «لا تنظرن إلى غضارة منبتي ونضارة ورقّي، وانظر إلي وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه، وعيناً شاخصة تندي بكاء عليه...»⁽²³⁾.

ثم استوى الخيري النّمام فأعلن أنه لا يجسر على نشر ريعه في أطراف النهار إجلالاً لأرج الورد واستحياءً منه، ولذلك فهو لا يتنفس إلا في أثناء الليل؛ إذ يقول: «والذي أعطاه الفضل دوني ومدّ له بالبيعة يمني، ما اجتروات قط إجلالاً له واستحياءً منه، على أن أتنفّس نهاراً أو أساعد في لذة صديقاً أو جاراً. فلذلك جعلت الليل سترأً واتخذت جوانحه كنأ»⁽²⁴⁾.

وبعد أن استوت مذاهب الأنوار المجتمعة في تفضيل الورد قررت عقد البيعة له

(19) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 53.

(20) المصدر عينه، ص 54.

(21) المصدر عينه، ص 55.

(22) المصدر عينه، الصفحة عينها.

(23) المصدر عينه، ص 56.

(24) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 56.

وتعميم ذلك على بنات جنسها المتباعدة المنابت في الأمصار. فكتبت كتاباً أجمعت فيه على رئاسة الورد وخضوعها لسلطانها، وبرئت من كل نور مكابر يحاول الاستعلاء عليه أو الغص من قدره. وذيلت الكتاب بشهادات شعرية، كل نور منها على حدة يؤدي شهادته مرفقة بتوقيعه⁽²⁵⁾.

وبإزاء هذه الرسالة التي يروم فيها صاحبها تقديم الورد على سائر أنوار الرياض، واحدة لأبي الوليد الحميري، يبعث بها إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية، يعارض بها ابن برد فيفضل البهار على الورد. وجماع رسالته أن أزهار الربيع عندما وقعت على كتاب البية للورد ورددت النظر فيه أنكرت ما جاء في خلله، وبرمت بتقديم هذا النور الذي لا يستحق الجمال المنسوب إليه، ولا الجلالة التي أحاطت بها طائفة من الزهر أعماها الهوى عن العدل المحض والإنصاف الصحيح. وبعد أن سلبت الورد محامده قامت بإرسال كتاب إلى الأقحوان والخيري الأصفر ضمنت إزراء بالورد وتأنياً للبهار لعوده عن حقه واشترائه في مبايعة سواه، ثم خلصت إلى مبايعة هذا النور الأخير⁽²⁶⁾. واتفق أن نفذ الكتاب إلى ذينك النورين أن كانا يرميان أنوار البنفسج والخيري النمام والنرجس بلواذع التوبيخ والتسفيه بدعوى تعقيبها للورد وانتصارها له. ولما ثلّي الكتاب خفت هذه الأزهار إلى الاعتراف بما اقترفت من ذنوب، فانبسطت أسارير الأقحوان والخيري الأصفر انشراحاً وبعثا برسالة جوابية إلى نواوير الربيع أودعاها تقديم البهار على الورد. وما هي إلا أن قامت هذه النواوير، بعد استئذان البهار بإنفاذ كتاب إلى أترابها المتناثرة في القعور والذرى والمنبسطات، أجمعت على مبايعة البهار من خلال شهادات نثرية موصولة بأبيات من الشعر⁽²⁷⁾.

فهذا البنفسج يعزو نحول جسمه واعتلاله ووهنه إلى انغماسه في الخطيئة وصدوفه عن الصواب حين قَدّم الورد، وهو إذ يعدل عن ذلك، فيفضل البهار، يخالطه ارتياح التائب؛ إذ يقول: «والله ما أضعف أملي وضاعف علي وأوهن سوقي مني، وقللني في كل سوق إلا الدخول في تلك الوحول، والبعد عن الخلق الكريم والصراط المستقيم في تأخير هذا الملك العظيم الذي بتقديمه الآن أرجو أن دائي قد لان»⁽²⁸⁾.

أما النرجس فيردّ السقم الذي براه وذهب طيبه إلى الإثم الذي ارتكبه إذ تعصب للورد، ولكنه يقلع عن غيّه ويقر بأوليّة البهار في مثل قوله: «تباً لتلك الفعلة الدميّة والقضية الدميّة التي جلبتني جلباب السقم، وسريلتني سربال الهرم، ولولا بواري إلى نسخها وتحلي في فسخها لذهب نفسي الأرج الذي به أبتهج»⁽²⁹⁾.

(25) المصدر عينه، ص 57.

(26) المصدر عينه، ص 58 - 59.

(27) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 60 - 61 - 62.

(28) المصدر عينه، ص 65.

(29) المصدر عينه، الصفحة عينها.

وأما الخيري النَّمَام فينسب أرقه وضعفه وانحباس نشره في النهار إلى انزلاقه في مهاوي الجهل والضلالة العمياء. على أنه لا يلبث أن يثوب إليه رشده فيشهد للبهار بالفضل والرئاسة؛ إذ يقول: «والله ما أَرَقَ بصري وأَرَقَ بِشْري، وأغاض نهاراً ماء بِشْري، أغمَد فيه سيف نشري إلا معصية الحق في تلك القضية وطاعة الهوى في تلك الخطية، فالحمد لله الذي أحال الحالة الموبقة لي لا محالة»⁽³⁰⁾.

وأما الأحقوان الذي لم يشارك في مبايعة الورد فيحمد الله على نجاته من تلك المعصية، ويخف إلى تقديم البهار؛ إذ يقول: «إن رمت أداء شكر الله على فضله المتناهي في استنقاذه لي من تلك القبيحة والدنية الصريحة لم أؤد الفرض ولا استطعت القرض، فالإقرار بالعجز نهاية، والاعتراف بالقصور غاية، فاستثنائي هناك وسكوني إذ ذاك انبتا ورقي وِرْقاً، وجعلاً فليقاً»⁽³¹⁾.

بينما الخيري الأصفر الذي ناظر الأحقوان في الإمساك عن تفضيل الورد، فيحمد الله كذلك على سلامته من تلك السقطة، مما صان جمال لونه؛ في مثل قوله: «الحمد لله الذي عصمني من تلك الدنية، ولم يخيبني عن هذه النية، وبها بقيت غضارتي وتأكدت نضارتي، ووهب لي الذهب الإبريز ملبساً، والمسك النفيس نَفْساً»⁽³²⁾.

2 . النوريات ووصف الطبيعة

جازت النوريات في النثر الأندلسي مجال الرسائل إلى مجال وصف الطبيعة حيث امتزجت به في قطع نثرية مختلفة. على أنها هناك تجلّت أكثر تنوعاً وأوفر اتساعاً وأشمل وصفاً في حالتي: الانفراد والاجتماع. ذلك أن الوصافين كانوا يعرجون على الأنوار تعريجاً رقيقاً كواحدة من زائحات الطبيعة من غير ما إطناب في نعتها ولا توفر على إبراز خصائصها.

ولعل الفتح بن خاقان هو أكثر الكُتّاب إكباباً على هذا الصنف في مؤلفه قلائد العقيان؛ إذ يبدو شديد الكلف بالطبيعة الأندلسية لا يني تصور رياضها الموشية بأجناس الزهر، وإنهارها المنسابة الشادية، وأشجارها المونقة الظليلة. تراه مرةً يصف أزهير الربيع على وجه الإجمال دون أن يسميها؛ من مثل ذلك وصفه معرساً في جنب إشبيلية؛ إذ يقول بعد صدر: «هو موضع مستبدع، كأن الحسن فيه مودع، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم، وروض كما وشت البرد يد راقم، وزهر يحسد المسك رياه، ويتمنى الصبح أن يسم به محياه...»⁽³³⁾.

(30) المصدر عينه، الصفحة عينها.

(31) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 66.

(32) المصدر عينه، الصفحة عينها.

(33) المقرئ: نفح الطيب، ج 1، ص 674.

وهو مرة ثانية يعتمد إلى وصف نواوير بأعيانها مظهراً بعض ملامحها من حيث الشكل واللون والأرج. من مثل هذا كلامه على النرجس المشبه للعيون الرانية، والجلنار المخضّب بأصباغ الدماء؛ إذ يقول بعد صدر: «والبطحاء قد لبست زخرفها، ودبج الغمام مطرفها، وفيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها، وتبتّ طيب تنفسها، والجلنار قد لبس أردية الدماء، وراع أفئدة الندماء»⁽³⁴⁾.

ومثل هذا التكوين القائم على مزج النوريات بوصف سائر مفاتن الطبيعة كثير في النثر الأندلسي؛ ذلك أن الكتاب في ذلك الأفق افتتنوا بخلاصة طبيعتهم أيما افتتان فعكفوا على تجسيد محاسنها وتصوير لطائفها المتجلية بأبهى هيئاتها في ملاءات النوار التي خلعتها الربيع على البطاح والأكام.

وعلى الجملة، فإن المنشئين الأندلسيين قد توفّروا على وصف النواوير، وصاغوا في هذا الباب أشكالاً أبرزها الرسائل القصار والطوال فضلاً عن القطع النثرية المخصوصة بوصف الطبيعة. وقد اتسم ذلك الوصف بطابع الإجمال حيناً، وبطابع التفصيل حيناً آخر. وهو في الحاليين ينم - كما سنرى - على نزوع القوم إلى إدراك جمال الأزهار إدراكاً حسياً ملاكه إبراز مفاتن الشكل والصبغ والريح كما انطبعت على صحاف الحواس. فلم يقفوا منها موقف المتأمل المندمّش، ولا اجتهدوا في استبطان الجمال المخبوء خلف المحسات، وإنما قنعوا بنسخ الواقع نسخاً يخلو من المشاركة والكشف والرؤيا.

موضوعاتها ومعانيها

اقتصرت موضوعات النوريات في النثر الأندلسي على طائفة من النواوير المعروفة التي تصافح العين في غير موضع وصوب. وإذا كان الشعراء قد أفاضوا في الحديث عن المشهور منها والمغمور فقايسوها إلى الأشياء الحسان، وأحاطوا بخصائص كل نور إحاطة تشي بالدقة والتفصيل؛ فإن الكتاب لم يسلكوا هذا المسلك، وإنما كانوا إلى التعميم أميل، ومن الاقتضاب أقرب؛ زد أن هؤلاء معدودون بيننا أولئك يفوقون العدّ والإحصاء. وجلّ الناثرين، كما يلوح، شعراء معروفون لهم في وصف الأزهار مقطعات بادية الحسن والرونق، أبرزهم: أبو مروان بن الجزيري، أبو جعفر بن الأبار، أبو الوليد الحميري، أبو جعفر بن أحمد، عمر بن هشام بن قليب، أبو الوليد بن العثماني وأبو عامر بن الطويل. وأظهر النواوير التي تصدى لوصفها هؤلاء وسواهم من الناثرين هي: الورد، النرجس، البنفسج، الخيري، البهار، الشقيق، الجلنار، الأقحوان والسوسن⁽³⁵⁾.

(34) ابن خاقان: قلائد العقيان، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص 112.

(35) يذكر أبو الوليد الحميري في كتابه البديع في وصف الربيع، واحداً وعشرين صنفاً من النواوير التي تناولها الشعر في الأندلس.

1 . الورد

كلف الأندلسيون بالورد فأطروا نعته، وتبسطوا في نشر محاسنه، ونزّلوه بين النواوير منزلة الصدارة في فَنِّي المنظوم والمنثور. تناوله الكُتّاب فجلّوا ملامحه وصوّروا أحواله. خلّبهم شكله فشَبَّهه بعضهم بوجنة المحبوبة التي حمرتها نظرة المحب، يصور ذلك أبو الوليد الحميري في مثل قوله: «بعثت بخدود المعشوقين قد أدمتها الحاظ العاشقين...»⁽³⁶⁾. وقايسه بعضهم الآخر إلى أجناس من الجواهر المنضدة وفاقاً لما نقع عليه في مثل قول⁽³⁷⁾ أبي حفص بن برد: «وهو كالياقوت المنضد في أطباق الزبرجد عليها فرائد العسجد».

واستهوهم لونه فقاربوا أحمره إلى صبغ الشفق مرةً، في مثل قول أبي جعفر بن أحمد: «فاحمّر حتى خلته شفقاً»⁽³⁸⁾. ووازنوا بينه وبين لون الدم مرةً أخرى من نحو قول أبي حفص بن برد: «وهو أحمر والحمرة لون الدم»⁽³⁹⁾. أما أبيضه فمشتق ضياؤه من النور، كما في قول أبي جعفر بن أحمد: «وابيض حتى أبصرته من النور فلقا»⁽⁴⁰⁾.

وما فات المنشئين الحديث عن ريحه، فوجه في روع بعضهم أن نفح المسك ضائع من ثناياه، يصف ذلك أبو جعفر بن أحمد؛ إذ يقول: «وأرج حتى كان المسك من نكائه»⁽⁴¹⁾. وذهب بعضهم الآخر إلى أن هذا الريح يلزم الورد في حال النضارة، ويعقبه في حال الذبول؛ وهو مع ذلك كله أصل غاليات الطيب؛ يشير إلى هذا ابن برد في مثل قوله: «إن فقدت عينه لم يفقد أثره، أو غاب شخصه لم يغب عرفه، والطيب إليه كله محتاج وهو عن جميعه مستغن»⁽⁴²⁾. إن نوراً هذه نعوته لهو مغنى أنس ومبهجة للعين والأنف. إن هو إلا واحدة من ملاح البرية الموصوفة بالحسن الطبيعي والخفر المعشوق؛ يرمي إلى ذلك أبو جعفر بن أحمد؛ إذ يقول: «زارنا الورد بأنفاسك، وسقانا مدامة الأنس من كاسك، وأعاد لنا معاهد الأنس جديدة، وزفّ إلينا من فتيات البر خريدة...»⁽⁴³⁾.

2 . الفرجس

وهو من الأنوار التي تأسر النفس وتستبهي العين. مال كُتّاب الأندلس إلى وصفه

(36) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 129.

(37) المصدر عينه، ص 55.

(38) ابن خاتان: قلائد العقيان، ص 190.

(39) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 54.

(40) ابن خاتان: قلائد العقيان، ص 190.

(41) ابن خاتان: قلائد العقيان، ص 190.

(42) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 54.

(43) ابن خاتان: قلائد العقيان، ص 190.

فتراءى لهم شكله أعيناً تنظر وتلاحظ، وحسبوا لونه الأصفر الممزوج بالبياض صباحاً منيراً ضمّن صفرة الغروب؛ يشير إلى ذلك أبو جعفر بن الأبار؛ إذ يقول: «فكالعيون النواظر... بل ذاك (أي النرجس) صبح مشتمل على شمس أصيل»⁽⁴⁴⁾.

3 . البنفسج

شغف به الأندلسيون وفضّله بعض الكُتّاب على سائر الأزهار⁽⁴⁵⁾. فإذا لونه مشبه اللون الشفاه التي خالط حمرتها سواد حيناً، وللون المسك حيناً آخر. أما ريحه فيبرد غلة المحزون ويفرّج عن المكروب، يعبر عن ذلك أبو جعفر بن الأبار في مثل قوله: «... أو سفرت عن البنفسج، الأنيق، فكلابس ثوب المسك الفتيق، وكأنما كستة لعسها الشفاه، فإذا تنسمه أو توسمه المحزون شفاه»⁽⁴⁶⁾.

زد أن هذا النور متعة للعين في حال النضرة، ومن مدّخرات الملوك في حال اليباس، وهو ذو منافع شتى لجسم الإنسان، يشير إلى ذلك أبو مروان بن الجزيري؛ إذ يقول على لسانه مفاخراً بنفسه: «... مع أني أعطر منهما (النرجس والبهار) عطراً، وأحمد خبراً، وأكرم إمتاعاً شاهداً وغائباً ويانعاً وذابلاً... والاستمتاع بي رطباً وادخاري في خزائن الملوك جافاً وتفضيلي على السنة الحكماء وتصريفي في منافع الأعضاء»⁽⁴⁷⁾.

4 . الخيري⁽⁴⁸⁾

تصدى الكُتّاب الأندلسيون لهذا النور فاستوقفهم سبقه سائر النواوير في التبكير. كما أذهلهم فتحة في أثناء الليل وانغلاقه إبان النهار، يُصور أحواله هذه أبو الوليد بن العثماني؛ إذ يقول: «بعثت بخيري جاز حد التبكير بأنسه... فاقبله... بهجاً منظره، أرجاً مخبره»⁽⁴⁹⁾. إذا دنا الكلام ونام الأنام إلا من استدعى عرفه واستجدى عرفه⁽⁴⁹⁾. وقد حسبه بعضهم مستهتراً يتطّيب بفتيت المسك ويدلج تحت جناح الدجى ابتغاء التهتك والعبث؛ يصف ذلك أبو الوليد الحميري إذ يقول: «... لا يند له إلا الند، ولا مسك له إلا المسك، وقد قبضته مشغولاً به، مستلذاً بقربه، متعجباً من حسن اختياره لاستتاره باستتاره تحت جناح الظلام ليسلم من الجُناح»⁽⁵⁰⁾.

(44) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 68.

(45) من هؤلاء الكُتّاب أبو مروان بن الجزيري - كما مرّ بنا - في رسالة فضّل فيها البنفسج على البهار والنرجس.

(46) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 68.

(47) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 78.

(48) هو نبات أصنافه مختلفة، بعضه أبيض وبعضه فرفيري، وبعضه أصفر. انظر: الجامع لفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار، ج 2، ص 82.

(49) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 113.

(50) المصدر عينه، الصفحة عينها.

وعرض بعضهم الآخر للونه فخالوا أصفره ذهباً خالصاً، ومن هؤلاء أبو الوليد الحميري أيضاً؛ إذ يقول على لسان الخيري: «ووهب لي الذهب الإبريز ملبساً»⁽⁵¹⁾.

5 . البهار⁽⁵²⁾

يعدّ البهار من النواوير المقدّمة في النثر النوري في الأندلس. ومن أظهر خصائصه سبقه الأنوار في التفتح، يشير إلى ذلك أبو عمر بن الباجي على لسان البهار عينه في مثل قوله: «... لأنني سابق حلبة النوار، وأول طلائع الأزهار»⁽⁵³⁾. ومنها شكله المماثل للعيون المحدقة، يطالعنا به أبو الوليد الحميري؛ إذ يقول: «لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء مشبها بالعيون التي لا يحول نظرها ولا يحور حورها»⁽⁵⁴⁾.

6 . الشقيق

يلوح أن المنشئين في وصف الشقائق مقلّون. وجلّ ما نجده عنها في منثورهم معقود بالموازنة بينها وبين الفتيات الأتراب اللواتي عراهنّ الخفر فقصبن الجباه الحمر بالحب الخضر، ونشرن الشعور السود. يصور ذلك أبو جعفر بن الأبار، إذ يقول: «إن حيثك بالشقائق فكاللدات الشقائق مغلفات العصائب، منشرات الذواشب...»⁽⁵⁵⁾.

7 . الجلنار⁽⁵⁶⁾

لم يسهب الكتّاب الأندلسيون في وصفه، فقنعوا بإبراز لونه، فإذا هو يعدل الدم القاني الذي يشيع الرعب في قلوب الشاربين. يرسم ابن خاقان هذا المشهد في مثل قوله: «والجلنار قد لبس أردية الدماء وراع أفتدة الندماء»⁽⁵⁷⁾.

8 . الأقحوان

عرض بعض الكتّاب لشكله ولونه، فإذا عمر بن هشام بن قلبيل يخال أنواره قطعاً من كرائم الدر والمرجان؛ إذ يقول في معرض وصف روضة: «وتبسم عن نور الأقحوان بمثل الدر والمرجان»⁽⁵⁸⁾.

(51) المصدر عينه، ص 66.

(52) هو نبات له ساق رخصة وزهر أصفر شبيه بالعيون. انظر: الجامع لمفردات الأديوية والأغذية، ج 1، ص 121.

(53) ابن بسم: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 2، م 1، ص 195.

(54) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 60.

(55) المصدر عينه، ص 68.

(56) معناه ورد الرمان، أصنافه كثيرة، فمته مورّد وأحمر وأبيض. انظر: الجامع لمفردات الأديوية والأغذية، لابن

البيطار، ج 1، ص 164.

(57) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص 112.

(58) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 31.

9 . السوسن

اقتصَرَ المنشثون في الأندلس على مقايسته إلى المحاجر والأجفان من غير ما توسع في سائر خصائصه؛ يصوّر ذلك ابن قليبيل أيضاً في مثل قوله: «تلاحظنا (الروضة) عن عين النرجس والسوسان بأهل محاجر وأجفان»⁽⁵⁹⁾.

10 . المفاضلة بين النواوير

مرّ بنا في صدر ما تقدم أن بعض الكُتّاب الأندلسيين قد أنشأوا الرسائل الطويلة وأودعوها مناظرات خيالية، حيناً، دارت بين جملة من أجناس النوار لأجل إبراز أولية النور المفضول ومبايعته بالرياسة والملك من دون أترابه؛ كمثّل رسالة ابن برد الأصغر في تقديم الورد على سائر الرياحين، ورسالة أبي الوليد الحميري في تفضيل البهار على الورد. كما ضمّنها حيناً آخر مفاخرات فردية تنهض بها الأنوار الأثيرة لديهم؛ إذ ينشر كلّ واحد منها محاسنه، ويعتدّ بمحامده، غاضاً من قدر سواه؛ من نحو رسالة أبي مروان الجزيري التي يفاخر فيها البنفسج بنفسه معرضاً بالبهار والنرجس، ورسالة أبي عمر بن الباجي التي ينطق فيها البهار بفضل غامزاً من قناة الورد.

وقد اجتهد هؤلاء الكُتّاب في حشد الأدلة الحسية والحجج العقلية تعزيزاً لمذهبهم في التفضيل وتمكيناً له في النفوس والأذهان. فمالوا إلى جلو مفاتن النور المقدم من حيث شكله ولونه وريحه، وعرض مميزاتة التي ينفرد بها دون سواه من مثل تبكيه في الظهور، واتصال نضرتة غبّ القطف، وديمومة أرجه في طور اليباس والذبول؛ فضلاً عن نشر منافع الطببة المخصوصة بالإنسان⁽⁶⁰⁾.

ولو رددنا البصر في تلك المناظرات والمفاخرات لوجدناها تجمع إلى وصف النواوير والمفاضلة بينها، أغراضاً أخرى مخبوءة في أضعافها. منها توق بعض الكُتّاب إلى الإيماء بأن من يوجهون إليهم تلك الرسائل، هم متفردون في الأعيان تفرد الأنوار المقدمة. وقد يعزز هذا الإيماء أن المفاضلات كانت، في أغلب الأحيان، ممزوجة بمدح وزير جليل أو سيد خطير⁽⁶¹⁾.

ومنها نزوع فريق من المنشثين إلى الفوز بالصدارة في البلاطات، والتقدم على الأقران في المحافل والقصور. يحمل على ذلك ما نلمحه في بعض الرسائل من تذرير النور، المفاخر بنفسه، من حسد بعض النواوير وعداوة بعضها الآخر⁽⁶²⁾.

(59) المصدر عينه، الصفحة عينها.

(60) انظر: رسالة ابن برد في: البديع في وصف الربيع، ص 53 وما بعدها.

(61) انظر: البديع في وصف الربيع، ص 194. والذخيرة، ق 3، م 2، ص 756.

(62) البديع في وصف الربيع، ص 194.

ومنها أيضاً، أن هذه المناظرات كانت متنفساً لنوازع القوم المكظومة إلى قضايا الفلسفة والمنطق المحظورة، فاندفعوا إلى تحويل الممنوع إلى مباح عبر المفاضلة بين أزهار الرياض. ولعل ما يومية إلى ذلك برودة الانفعال وانبهات المشاركة الوجدانية في وصف هذه الأزهار كما سنرى في كلامنا على الخصائص الفنية⁽⁶³⁾.

ومن تلك الأغراض، ميل الكُتّاب إلى المعارضة والمباهاة بالقدرة على التعبير والتصوير، فكانت تلك المفاضلات معرضاً للأساليب المنتقاة والصياغات المصفاة، يفتن فيها المنشئون أيما افتتان⁽⁶⁴⁾.

ولا مرية في أن إكباب القوم على مثل تلك المناظرات ينمُّ على كلف بالأنوار، وافتتان بهيئاتها وأصباغها وأنفاسها، وإحاطة بأحوالها في التنوير والتبكير، وإجلال لقدرها عبر التهادي بالأضاميم المضمفورة منها.

كما تشي تلك المفاضلات بوفرة أوقات الفراغ في مُناخ عابق بالرخاء والعيش النضير؛ وكأنما غدا الإشتغال بها لوناً من ألوان تزجية الوقت والتلهي، استساغته المنشئون في الأندلس.

وهي كذلك تومىء إلى ولوع القوم بالمحاجة والمعارضة؛ إذ كانت الرسالة يصوغها واحد في تفضيل نور على آخر مثاراً لإنشاء رسائل جديدة تعارضها وتنقض دعواها⁽⁶⁵⁾.

وعلى الجملة، فإن المعاني التي أودعها الكُتّاب الأندلسيون نورياتهم تفتقر إلى العمق افتقارها إلى حرارة الانفعال وتوقد الخيال. ذلك أنها، في غالبيتها الأكثرى، مستمدة من المدركات الحسية مرةً، ومحاكية نظيراتها في الشعر مرةً أخرى، دون أن تعزز بإضافات، ودون أن يمازجها جديد أفق.

خصائصها الفنية

اصطبغ النثر النوري في الأندلس بجملة من الخصائص، لعل أبرزها: الوصف، الصبغ البديعي، الإكثار من النعوت، الشواهد الشعرية والأمثال، المحاجة العقلية، والأدعية والإشارات الدينية والسياسية.

(63) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص 292. عصر الطوائف والمرابطين، ص 197.

(64) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بيروت، 1976، ص 469.

(65) من مثل رسالة أبي الوليد الحميري في تفضيل البهار، التي عارض بها رسالة ابن برد في تفضيل الورد. وقد مرَّ بنا ذلك تحت عنوان: «النوريات والرسائل الطويلة».

١. الوصف

لو تأملنا هذا الجنس من النثر لوجدناه معقوداً بفن الوصف الذي يتناول الطبيعة الصامتة. وهو في غالبه الأعم من الوصف التقريري القائم على تجسيد الموصوف ونقل ملامحه كما تنطبع على صحاف الحاسة. ذلك أن المنشئين مالوا إلى تمثيل النواوير بأمثالها ومقايستها إلى أشباهها عبر معادلات لفظية تلامس الواقع ولا تملك احتضانه. ومثل هذا المسلك قاصر عن براء صور للموصوف من رحم الرؤيا أو من جذوة المعاناة. لذلك جاءت صور الزهر، في ذلك النثر، لدات خيال مادي عماده المشابهة في معظم الأحيان. وهي تترجح بين بصرية وشمية.

أما البصرية فهي الأكثر حضوراً والأوفر افتناناً؛ إذ إن القوم أفاضوا في الحديث عن هيئات النواوير والوانها. وقد سلكوا في تمثيلها مسالك شتى. فعاج بعضهم على المرأة يزاجون بين مفاتها وما تفيض به تلك الألوان والهيئات من خلاصة معشوقة. من ذلك المقاربة بين هيئة الورد ولونه وبين وجنات الحسان التي أحدث فيها تحديق المحبين حمرة تأسر الأعين؛ يقول أبو الوليد الحميري من قطعة نثرية يصف فيها جني ورد: «بعثت بخدود المعشوقين قد أدمتها الحاظ العاشقين»⁽⁶⁶⁾. ومن ذلك أيضاً الموازنة بين شكل النرجس ونواظر العذارى المكسرة الأجفان، من نحو ما نلمح في وصف عمر بن قليبيل لروضة بهره حسنهما؛ إذ يقول: «تلاحظنا عن أعين النرجس والسوسان بأحلى محاجر وأجفان»⁽⁶⁷⁾. ومن الضرب عينه مقايضة لون البنفسج إلى الشفاه اللعس، نقع على ذلك في مثل قول أبي جعفر بن الأبار: «وكانما كسته لعسها الشفاه»⁽⁶⁸⁾. ولو أردنا إحصاء الصور البصرية التي استمدتها الكتاب من مفاتن المرأة لأجل جلو أشكال النور وأصباغه لطال بنا التعداد.

وطاب لفريق من المنشئين الموازنة بين ألوان الزهر وأصباغ الجواهر، فإذا القطع النثرية المخصصة بوصف أنوار الرياض تختال بلالاء الأحجار الكريمة التي تفتن النواظر؛ فالبهار بلونيه المتمازجين الأصفر والأبيض «نضار الروض ولجينه»⁽⁶⁹⁾ والورد المتنوع الأصباغ هو «كالياقوت المنضد في أطباق الزبرجد»⁽⁷⁰⁾. أما الألقوان الأبيض المشرب بالحمرة فدر ومرجان»⁽⁷¹⁾.

وساغ لبعضهم الآخر تمثيل ألوان الزهر بأشباه لها في الطبيعة. فحسبوا الورد

(66) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 129.

(67) المصدر عينه، ص 31.

(68) المصدر عينه، ص 68.

(69) ابن بسام: النخيرة، ق 2، م 1، ص 195.

(70) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 55.

(71) المصدر عينه، ص 31.

الأحمر شفقاً والأبيض منه ضياءً في سطوعه ونفاثه⁽⁷²⁾؛ والنرجس في صفته الممزوجة بالبياض «صبحاً مشتملاً على شمس أصيل»⁽⁷³⁾؛ والزهر في مخضر البطاح أنجماً زهراً⁽⁷⁴⁾.

وقد جاور جنب هذه الصور البصرية صور شمسية تكاد تقتصر على ريح المسك. فللبنفسج ريح فتيق المسك⁽⁷⁵⁾؛ وللخيرى مخبر المسك وعرفه⁽⁷⁶⁾؛ وللورد أرج المسك أيضاً⁽⁷⁷⁾. وكان أجناس الزهر طراً مشتملة على عطر بعينه، أو كأن شميم المسك معوم على هذه الأجناس. لذلك جاءت الصور الشمسية متماثلة مكرورة غير ذات بال.

وجلي أن هذه الصور المنضودة في رسائل الأندلسيين النورية مستوحاة من مصادر تشع بالجمال من مثل الحسان والجواهر والكواكب وسواها من زائحات الطبيعة، لإبراز جمال النواوير، إلا أنها تلبث مثقلة بالجمود متلفعة بالبرودة في أكثر الأحيان. ذلك أنها وليدة خيال مادي مولع بإقامة المعادلات الحسية التي تظل حبيسة الواقع، لا تملك الانعتاق من ربقة. كما أنها ظلال باهتة لتلك الصور الماثلة في الشعر المقول في وصف الزهور؛ إذ إن مقايسة الورد إلى وجنات العذارى، والنرجس إلى عيونهن المفترة، والبنفسج إلى شفاههن الملغسة وسواها من المقايسات إنما هو مما تعاوره الشعراء وأنهكوه.

ب . الصبغ البديعي

زها النثر النوري في الأندلس بأصباغ البديع التي هام بها الكتّاب في عصر ملوك الطوائف هياماً شديداً حملهم على الإكثار منها والافتنان فيها والاحتفال بها أيما احتفال. فكان ما شاع من أسباب اللهو والترف قد سرى إلى النفوس وأحدث فيها ميلاً إلى التأنق والزينة في أحوال المعاش والتأدب⁽⁷⁸⁾. وكان القوم المتأدبين قد استطابوا الزخرفة فأكبوا ينمّقون بحليها منثورهم. والبادي أن هذه الظاهرة قد عمت أغلب فنون النثر في ذاك العصر.

ومن أزهى تلك الأصباغ السجع الذي خالط النثر النوري وسكن خلله فما بارحه قط. وكان هذا الصبغ البديهي قبلة المنشئين، والمجال الذي يتبارى فيه المترسلون،

(72) ابن بسام: الذخيرة، ق 3، م 2، ص 756.

(73) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 68.

(74) المصدر عينه، الصفحة عينها.

(75) المصدر عينه، الصفحة عينها.

(76) المصدر عينه، ص 114.

(77) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص 190.

(78) إميليو غومس: الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص 44.

لما يمازجه من نغمية ترتاح إليها الأسماع، وتستطيبها النفوس⁽⁷⁹⁾. والملاحظ أن معظمه قد بني، في الرسائل النورية، على فواصل قصيرة لا تخلو من رشاقة وجمال إيقاع. يطالعنا مثل ذلك في رسالة لأبي جعفر بن الأبار يصف فيها جملة من الأنوار؛ إذ يقول: «إن حَيْتَكَ بالشقائق فكالدات الشقائق، مغلفات العصائب، منشرات الذوائب، أو بالنرجس والورد فكالعيون النواظر إلى الخدود النواضر»⁽⁸⁰⁾.

وقد صاحب التوازن السجع في النثر النوري حين مال بعض الكُتَّاب إلى التخفف من أسباب الصنعة والتكلف، ففنعوا بشيء من الإيقاع يزيّن منشورهم؛ نفع على مثل ذلك في رسالة للوزير ابن برد يفضّل فيها الورد على سائر النّوار؛ إذ يقول على لسان أحد النواوير: «قد عطفت علينا الأعين، وثنت إلينا الأنفس، وأصبت بنا الأكف، وأزهت بمحضرنا المجالس، حتى سفرنا بين الأحبة، ووصلنا أسباب القلوب، وتحملنا لطائف الرسائل»⁽⁸¹⁾.

ونشأ عن كلف الكُتَّاب بالسجع والتوازن شيوع ظاهرة الترادف في رسائلهم النورية؛ إذ كانوا يعمدون إلى ترديد المعنى الواحد في عبارتين متعاقبتين طمعاً في توفير نغمية الأسجاع مرةً من نحو قول أبي عمر الباجي على لسان البهار: «أنا عبد مطيع مسخر، ومملوك يتصرف مدبر»⁽⁸²⁾. ومرةً لأجل إيقاع التوازنات، من مثل قول ابن برد على لسان الخيري النّمام: «فلذلك جعلت الليل سترًا، واتخذت جوانحه كُتًا»⁽⁸³⁾.

وثمة صبغٌ بديعي آخر توفّر عليه كُتَّاب النور، وأطنبوا في رقص نثرهم بالوانه، حتى بات زينة لا تستغني عنها الرسائل النورية في الأندلس؛ نورد على سبيل التمثيل لا الجمع قطعة لأبي الوليد الحميري تخايلت فيها أنواع من الجناس البادية التكلف؛ إذ يقول، مجابياً صاحب الشرطة ابن العثماني الذي بعث إليه مطيّبٌ خيري:

«فلما تعاهدتُ خيريك عهائِ شيمك، ودامتُ عليه ديم كرمك، بكر متنعماً منها، متنفساً عنها، ولا ندُّ له إلا النَّدَّ، ولا مَسَكَ له إلا المِسك، وقد قبضتُه مشغولاً به مستلذاً بقربه متعجباً من حسن اختياره لاستتاره باستهتاره تحت جناح الظلام ليسلم من الجُنَاح»⁽⁸⁴⁾. وغير خافٍ أن الكاتب قد جانس بين: دامت وديم، منها وعنها، ندَّ والنَّدَّ، مَسَكَ والمِسك، استتاره واستهتاره، جَنَاح والجُنَاح، الظلام والملام. وغير خافٍ أيضاً الجهد المبذول لاصطياد مثل هذه المجانسات النّامة على شغف شديد بالصنعة والزخرف.

(79) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 325.

(80) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 68.

(81) المصدر عينه، ص 54.

(82) ابن بسام: الذخيرة، ق 2، م 1، ص 195.

(83) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 56.

(84) المصدر عينه، ص 113.

كما ألوى المترسلون الأندلسيون على المطابقة ورقشوا بالوانها نورياتهم، من ذلك قول الوزير ابن برد في تفضيل الورد: «فهو الأكرم حسباً والأشرف زمناً والأتَمَّ خصالاً، والذي إن فقدت عينه لم يفقد أثره، أو غاب شخصه لم يغب عرفه، والطيب إليه كله محتاج، وهو عن جميعه مستغن...»⁽⁸⁵⁾. وبإد أن الكاتب قد طابق بين: فقدت ولم يفقد، غاب ولم يغب، محتاج ومستغن. والمطابقات في النوريات النثرية تعضد المجانسات والتوازنات والأسجاع لتولّد في جملة ما أنغماً ترضي حاسة السمع.

ج . الإكثار من النعوت

يُعَدُّ الإكثار من النعوت من أهم السمات التي تميّز بها النوريات في النثر الأندلسي. ذلك أن المنشئين، في أثناء كلامهم على النواوير، عاجوا على وصف ألوانها وأشكالها وأنفاسها؛ والنعوت مركوزة في طبائع الوصف وموصولة بأدواته. وهي لدى الوصّاف تحكي الألوان عند الرّسام؛ إذ إنها تساعد على جلو ملامح الموصوف وتجسيد لطائفه وصقل أصباغه. نمثّل على ذلك بقطعة نثرية يصف فيها أبو جعفر بن الأبار جملة من أنوار الرياض؛ إذ يقول: «والرياض راضية من الحيا متبرجة بعد الحياء... إن حيّتك بالشقائق فكاللدات الشقائق مغلفات العصائب، منشرات الذوائب، أو بالنرجس والورد فكالعيون النواظر إلى الحدود النواضر. بل ذاك صبح مشتمل على شمس أصيل، وهذا خجل مستول على خد أسيل، أو سفرت عن البنفسج الأنقى فكلابيس ثوب المسك الفتيق...»⁽⁸⁶⁾. ولا ريب في أن النعوت المصاحبة للزهور في هذه القطعة النثرية قد أعانت على تحديد الشكل واللون والحالة والريح، كما ساعدت على رسم ما يمتاز به كل جنس من تلك النواوير.

د . الشواهد الشعرية والأمثال

ومما يمتاز به النثر النُوري في الأندلس اشتماله على أبيات من الشعر طرّز بها الكتّاب رسائلهم تعزيزاً لما يذهبون إليه في حديثهم عن النواوير، وتدليلاً على منزلته في نفوس الأندلسيين. فكانهم لم يقنعوا بالإغارة على معاني الشعر النوري وصوره، بل جعلوا ينطقون الأنوار بأبيات شعرية في مواضع التفاضل والتفاخر.

وقد تصنّفت تلك الشواهد صنفين: إما هي من نظم المترسلين أنفسهم، من نحو قول أبي الوليد الحميري على لسان الخيري الأصفر في معرض تفضيله البهار على الورد⁽⁸⁷⁾:

(85) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 54.

(86) المصدر عينه، ص 68.

(87) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 67.

أصفر الخيري يشهد أن عقد الورد قد رد
ويرى أن البهار المنتقى أعلى وأمجـ
ملك يقظان يأتي وصنوف النور هجـ

وصنف استعاره المنشئون من شعراء النور، من مثل إثبات الوزير أبي حفص بن برد، على لسان البهار في مقام تقديمه الورد، بيتاً للخنساء هو: ⁽⁸⁸⁾

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ومن مشتملات تلك الرسائل النورية، أيضاً، أمثال سائرة أوردها المترسلون في المواطن الخليفة بها والملائمة لها، وشبه ذلك ما ورد في رسالة لأبي الوليد الحميري، في تفضيل البهار، على السنة النواوير النادمة على مبايعة الورد: «اللبيب من عدت سقطاته، والأريب من حُصّلت هفواته» ⁽⁸⁹⁾. و «ربّ عجلة تبعث ريثاً» ⁽⁹⁰⁾.

ومن الباب عينه ما جاء في رسالة للوزير أبي مروان الجزيري على لسان البنفسج المزهو بنفسه: «وليس المجد يدرك بالصرع» ⁽⁹¹⁾. وأشبه هذه الأمثال وتلك الشواهد الشعرية كثيرة في الرسائل النورية في الأندلس.

هـ . المحاجة العقلية

شاعت هذه الظاهرة في رسائل المفاضلة بين النواوير؛ إذ اجتهد الكتاب في بسط الحجج العقلية والأدلة الحسية على السنة الزهور المتزاحمة على الأوليّة والرياسة. نعرض على سبيل التمثيل لا الحصر لرسالة أنشأها الوزير أبو مروان الجزيري في تفضيل البنفسج على النرجس والبهار ⁽⁹²⁾. وفيها ينهض النور المقدم فيجلو محاسن ذاته ويعتدّ بمآثرها، ومن ثم يجدّ في الطعن على منافسيه وفي الغضّ من قدريها؛ فلئن كانا يشبهان بعض ما في الكون من جواهر ونجوم، فإنه هو مشبه لأجمل ما في الإنسان الذي يعدّ أكمل خلق الله على الإطلاق. أما عطره فأذكي وأطول لبثاً في حالّي الاخضرار واليباس. يضاف إلى ذلك كله ما له من منافع طبية غابت عنهما، وإذا فاخرا بامتلاكهما ساقاً أقوى من ساقه فإن الرقة سمة كل لطيف وجميل ⁽⁹³⁾.

ويلوح أن مادة المحاجة في هذه الرسالة مستقاة من خواص كل نور من حيث شكله ولونه وريحه ونفعه. وقد اتّبع فيها ابن الجزيري مذهب الرد والنقض، إذ راح

(88) المصدر عينه، ص 56.

(89) المصدر عينه، ص 61.

(90) المصدر عينه، ص 62.

(91) المصدر عينه، ص 79.

(92) عرضنا لهذه الرسالة تحت عنوان: النوريات والرسائل الطويلة.

(93) المقري: نفع الطيب، ج 1، ص 531.

البنفسج يدحض مزاعم النرجس والبحار، ويقلب النقائص التي رمياه بها إلى فضائل معشوقة. كما يلوح أن هذا المسلك لم يكن مقصوراً على الجزيري، وإنما سلكه سائر المترسلين في معرض المفاضلة بين أنوار الرياض.

و . الأدعية والإشارات الدينية والسياسية

حفلت الرسائل النورية بالأدعية لأصحاب الشأن والسلطان، يهتف بها المنشئون مرةً، من مثل دُعاء أبو جعفر بن الأبار لأبي الوليد الحميري في رسالة فورية: «أراد - أبقاه الله ووقاه - التنزه إلى بعض ضياعه...»⁽⁹⁴⁾. ومرةً يلهج بها النور، من مثل دُعاء البنفسج للمنصور بن أبي عامر⁽⁹⁵⁾: «إني - أيد الله المنصور مولاي - لما استقلت بزهرتها مائلة قضبي...».

كما تخللها، في أحيان كثيرة، إشارات دينية، من نحو البسملة والحمدلة، وخسران الدنيا والآخرة. يقول أبو الوليد الحميري في رسالة يفضل فيها البهار على الورد على ألسنة الأنوار: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلت إلينا بيعة اشترى بها من سعى فيها، وفقر عن فيها خسران الدنيا والآخرة...»⁽⁹⁶⁾. وفي موضع آخر من الرسالة عينها يقول الحميري على لسان الخيري الأصفر: «الحمد لله الذي عصمني من تلك الدنية...»⁽⁹⁷⁾.

وثمة إشارات سياسية تكتنف تلك الرسائل من مثل ما جاء في رسالة للوزير أبي حفص بن برد على لسان نور متعصب للورد: «فمن لقيه منا حيّاه بالملك ووفاه حق الإمامة، ومن لم يدرك زمن سلطانه ولم يأت عدّان دولته اعتقد ما عقد عليه ولبيّ ما دُعي إليه...»⁽⁹⁸⁾.

زد على ذلك كله وفرة القسم الذي تؤديه النواوير في معرض الاعتراف بأولية النور وإمامته؛ نمثّل على ذلك بقول النرجس الأصفر مبايعاً الورد: «والذي مهد حجر الثرى، وأرضعني ثدي الحيا...»⁽⁹⁹⁾. وشبهه قول الخيري النّمّام مقدّماً الورد أيضاً: «والذي أعطاه الفضل دوني ومدّ له بالبيعة...»⁽¹⁰⁰⁾.

يُستقصى من إدراج ما تقدم أن النُوريات في النثر الاندلسي قد تفتقت كاماهما في جواء الحجابة العامرية، ثم ما لبثت أن بلغت مرحلة الإيناع والنشر في مُناخات ملوك الطوائف، ففاضت بالطيب وازدهت بالأصباغ، تنزين بها الرسائل حيناً، والمقطعات

(94) أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، ص 68.

(95) المصدر عينه، ص 99.

(96) المصدر عينه، ص 59.

(97) المصدر عينه، ص 66.

(98) المصدر عينه، ص 54.

(99) المصدر عينه، ص 53.

(100) المصدر عينه، ص 56.

الوصفية حيناً آخر. وكان المنشثون في هذه وتلك يتصدون لجملة من أنوار الرياض فيمتدحون مفاتنها، ويفاضلون بينها، ويسبغون عليها نعمة النطق وصفات التفاخر والتحاسد بله مشاعر العشق والندم والخضوع. وكانوا في ذلك كله يتعسفون الاحتذاء على شعراء النور فينقلون معانيهم وصورهم؛ غير أنهم قصّروا عنهم وغلب على وصفهم التكلف والرسوف في المحسّات. وكان النّور، مع فتونه، عجز عن بليلة نفوسهم وفتق قرائحهم؛ أو كأن خيالهم قد أسرته المرثيات فبات قاصراً عن الإتيان بالمعاني الأيكار، وعن جوز الحسي إلى النفسي.

وقد أضافوا إلى ذلك البديع فطلبوا أصنافه وألحوا على أصباغه حتى استحالت نورياتهم معارض لطرف السجع وحلى التجنيس وتحف المطابقة وسواها من الزخارف التي استعبدتهم واستفرغت مجهودهم. ولعل هذا النزوع إلى الصنعة والتزويق كان دأب الغالب الأكثر من المنشثين في الأندلس.

وأغلب الظن أن هذا المسلك المثقل بأسباب التنميق والتلوين يحكي في كثير من خصائصه فنّ الرقش «الأرابسك» الذي اشتهر به العرب فبسطوا زخارفه على المشيد والمصنوع. وملاك هذا الفن العناية الشديدة بجمال الشكل الذي يرمي إلى إحداث لذة في الحواس⁽¹⁰¹⁾. ومن هذا المطلق تغدو الرسالة النورية لوحة أرابسكية تنداح في فضائها أجناس التوازن والتناظر والتكرار من خلال زائحات البديع. فهي تملك أن تسعد الحاسة، ولكنها لا تقوى على بليلة الروح والوجدان.

(101) عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، مصر، ص 396.